جعلت ترجب بالعفاة صرورا • عضت على حلقاتها من ضراغم • نفرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها • من لم يكن بدخوله مأمورا • تجري الخواطر مطلقات أعنة
فيه فتكبوا عن مداه قصورا • برحيم الساحات تحسب أنه • فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه • مسكا تضوع نشره وعبيرا • تستخلف الإصباح منه إذا انقضى
صبحا على غسق الظلام منيرا • ثم بركة فيه عليها أشجار من • ذهب وفضة ترمي فروعها
المياه وتقذف فذكر أسود أيضا • حافاتها فاذفته بالماء أيضا • فقال
وضراغم سكنت عرين رياسة • تركت خرير الماء فيه زئيرا • فكأنما غشى النضار جسومها
وإذا ابن في أفواهها البلورا • أسدا كأن سكونها متحرك • في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما • أقعت على أدبارها لتثورا • وتخالها والشمس تجلو لونها
نارا وألسنها اللواحس نورا • فكأنما سلت سيوف جداول • ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه • درعا فقدر سرده تقديرا • وبديعة الثمرات تعبر نحوها
عيناي بحر عجائب مسجورا • شجرية ذهبية نزعت إلى • سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد سرحت أغصانها فكأنما • قبضت بهن من الفضاء طيورا • وكأنما تأبى لواقع طيرها
أن تستقل بنهضها وتطيرا • من كل واقعة ترى منقارها • ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت • جعلت تغرد بالمياه صفيرا • وكأنما في كل غصن فضة
لانت فأرسل خيطها مجرورا • وتريك في الصهريج موقع قطرها • فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما • جعلت لها زهر النجوم ثغورا • ومصفح الأبواب تبرا نظروا
بالنقش بين شكوله تشطيرا • تبدو مسامير النضار كما علت • تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا موشية • شمس ترد الطرف عنه حسيرا • وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
أبصرت روضا في السماء نضيرا • وعجبت من خطاف عسجده التي • حلمت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها • فأرتك كل طريدة تصويرا • وكأنما للشمس فيه ليقة
مشقوا بها التزويق والتشجيرا • وكأنما باللازورد مخرم • بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة • تركوا مكان وشاحها مقصورا • ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله
يا مالك الأرض الذي أضحى له • ملك السماء على العداة نصيرا • كم من قصور للملوك تقدمت
واستوجبت لقصورك التأخيرا • فعمرتها وملكت كل رياسة • منها ودمرت العداة تدميرا

قلت لم أر لهذه القصيدة من نظير، في معناها اليانع النضير، ولفظها العذب النمير، الذي شمر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أي تشمير، غير أن فيها عندي عيبا واحدا وهو ختمها بلفظ التدمير، وعلى كل حال فالحسن والإحسان، يقادان في أرسان، لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسان، وخصوصا في وصف المباني والبرك، فما أبقى لسواه في ذلك حسنا ولا ترك، ومن ذلك قوله يصف بركة يجري إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود وكل ذلك في قصر الحنب في وصفه في قصيدة طويلة

والماء منه سبائك فضية • ذابت على دوحات شاذروان • وكأنما سيف هناك مشطب
ألقته يوم الحرب كف جبان • كم شاخص فيه يطيل تعجبا • من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقي الرياض ينابعا • نبعت من الثمرات والأغصان • خصت بطائرة على فنن لها
حسنت فأفرد حسنها من ثان • تشدو الطيور الخاشعات بلاغة • وفصاحة من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت • بخرير ماء دائم الهملان • وكأنما صانعها استبد بصنعة
فخر الجماد بها على الحيوان • أوفت على حوض لها فكأنها • منها إلى العجب العجاب رواني
فكأنها ظنت حلاوة مائها • شهدا فذاقته بكل لسان • وزرافة في الجوف من أنبوبها
ماء يريك الجري في الطيران • مركوزة كالرمح حيث ترى له • من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنما ترمي السماء ببندق • مستنبط من لؤلؤ وجمان • لو عاد ذاك الماء نفطا أحرقت
في الجو منه قميص كل عنان • في بركة قامت على حافاتها • أسد تذل لعزة السلطان
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها • فلذلك انتزعت من الأبدان • وكأن برد الماء منها مطفئ
نارا مضرمة من العدوان • وكأنما الحيات من أفواهها • يطرحن أنفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها • أخذت من المنصور عقد أمان

فهاتان القصيدتان لابن حمديس كما في المناهج مع طولهما يدلان على الإبداع الذي ابتكره، والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء الأكرة، وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي يصف قصرا بمصر يسمى منزل العز بناه حسن بن علي بن المعز العبيدي

منزل العز كاسمه معناه • لا عدا العز من به سماه
فاجل فيه لحظ عينك تبصر • أي حسن دون القصور حواه • منزل ودت المنازل في أعلى ذراه لو صيرت أياه
وبأرجائه مجال طراد • ليس ينفك من وغى خيلاه • سال في سقفه النضار ولكن • جمدت في قراره الأمواه
وترى التابل المواصل للنز • ع بعيدا من قرنه مرماه • تبصر الفارس المدجج فيه • ليس تدمى من الطعان قناه
سكنات تخالها حركات • واختلاف كأنها أشباه • وصفوفا من الوحوش وطير • أنجب كل مستحسن مرآه
كمحيا الحبيب حزنا بعرف • ما تعدى صفاته أحكاه

ورده

ورده وجناه نرجسه الفتان عيناه آسه عارضاه • وكأن المسك والكافور في الطيب وفي اللون صبحه ومساه
منظر يبعث السرور ومرأى • يذكر المرء عصره وصباه

وقال أبو الصلت الأندلسي المذكور يذكر بناء بناه يحيى بن تميم بن المعز العبيدي

لله مجلسك المنيف قبابه • يوطد فوق السماء مؤسس • موف على حبك المجرة تلتقي
فيه الجواري بالجوار الكنس • تتقابل الأنوار من جنباته • فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه • عطف الأهلة والحواجب والقسي • واستشرفت عمد الرخام وظوهرت
بأجل من زهر الربيع وأنفس • فهو أروع من كل قد أهيف • وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم • وأقر بالتقصير كل مهندس • فبدا لحظ العين أحسن منظر
وغدا لطيب العيش خير معرس • فأطلع به قمرا إذا ما أطلعت • شمس الخدود عليك شمس الأكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة • والأرض أجمع دون هذا المجلس

ويعجبني قول أبي الصلت أمية المذكور يصف حالتي زيادة النيل ونقصانه

ولله مجرى النيل منها إذا الصبا • أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
إذا ازدهى يحكي الورد غضا وإن صفا • حكى ماءه لونا ولم يعده نشرا

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر

يا نزهة الرصد اللاتي قد اشتملت • من كل شيء حلا في جانب النادي
فذا غدير وذا روض وذا جبل • والضب والنون والملاح والحادي

وهو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة

زر وادي القصر نعم القصر والوادي • لا بد من زورة من غير ميعاد • زره فليس له شيء يشاكله
من منزل حاضر إن شئت أو بادي • تلقى به السفن والظلمان حاضرة • والضب والنون والملاح والحادي

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين

بعيشك هل أبصرت أحسن منظر • على طول ما عاينت من هرمي مصر • أنافا بأعنان السماء وأشرفا
على الجو إشراف السماك أو النسر • وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا • كأنهما ثديان قاما على صدر

وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى في الباب الخامس، وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات

غضبت مجاريها فأظهر غيظها • ما في حشاها من خفي مضمر • وكأن نبع الماء من جنباتها
والعين تنظر منه أحسن منظر • قضب من البلور أثمر فرعها • لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

وقال ابن صارة الأندلسي يصف ماء بالرقة والصفا

والنهر قد رقت غلالة خصره • وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنما • عكن الخصور تهزها الأعجاز

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرني الآن اسمه

والنهر يكسو غلالة فضة • فإذا جرى سيلا فثوب نضار
وإذا استقام رأيت صفحة منصل • وإذا استدار رأيت عطف سوار

وقال ابن حمديس المغربي يصف نهرا بالصفا

ومطرد الأمواج يصقل متنه • صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصا كلما جرى • عليها شكى أوجاعه بخريره

وهذا النهج متسع ولم نطل السير في هذه المهامه، وإنما ذكرنا بعض كلام المغاربة لبيان منتقصهم من سعة أوهامه، ولات في أمرها عبرة لمن عقل، إذا أصدأ مرآة حسنها وطال ما كان لمتنها صقل، وقد وقفت على كلام لصاحب المنهاج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصا وهو: ونلحق بذكر المنازل التي راق منظرها، وفاق مخبرها، وارتفع بناؤها، واتسع فناؤها، طرفا من الكلام على ما عفاه الدهر من رسومها، ومحاه من محاسن صور كانت أرواحا لجسومها، وصف أعرابي محلة قوم ارتحلوا عنها فقال: تلك ارتحلت عنها ربات الخدور، وأقامت بها أثافي القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح، فعفت الرياح آثارهم، وذهب بأبدانهم وأبقت أخبارهم، والعهد قريب والملتقى بعيد. وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن

يا دار أمسى دارسا رسمها • وحشا قفارا ما بها آهل
قد جرت الريح بها ذيلها • واستن في أطلالها الوابل

ومن كلام الفتح بن خاقان في قلائد العقيان يذكر آل عباد بن فضل الكرة التفجع، وأطال بها التوجع: والقصور تختال في أدواحها، والأزاهر تحيي بعبق الصبابة شذا أرواحها، والمياه والرياض كشكل يحنو على خرائبها وأتراح أطرابها، والوهم غشيها الأعب، وعلى كل جدار منها غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام نزلوا حلالها، وتفيؤوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجناتها، ونبهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأصبحت ولها التفجع والتعجب، ولم يبق من آثارها الأنوي أعجاز، قد هوت تباعها، وهرم شبابها، وقد يبلى الحديد ويبلى على طيه الجديد. وقال أبو بكر القرطبي

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)